الفصل الثاني عشر

حلم، سلام

لقد غيّر الانتصار على الأحزاب والحملة ضد بني قريظة الوضع في الجزيرة حيث تم الاعتراف بقوة النبي ﷺ وأصحابه، فالبعض، مثل الفرس والبيزنطيين كانوا يتحدثون عن محمد ﷺ بوصفه «ملك العرب القوي»، حيث إنهم وجدوا فيه قوة إقليمية مرهوبة الجانب، وكان محمد ﷺ عندما تأتيه استطلاعات استخبارية بوجود خطر، لا يتردد في إرسال الحملات إلى القبائل القريبة بغية استباق أي محاولة للتمرد أو الهجوم وليوضح بذلك للعشائر المجاورة بأن مسلمي المدينة هم دائماً في حالة من اليقظة والاستعداء للدفاع عن أنفسهم.

لقد وقعت حادثة عقد عائشة ـ رضي الله عنها ـ أثناء إحدى تلك الحملات ضد بني المصطلق، في السنة السادسة للهجرة، هذه الحادثة تذكرنا، كغيرها أن الحياة والدروس تجري حسب ما تمليه إرادة الله وأن الممارسة الدينية كانت تتضح فيما كان البعد الاجتماعي للأخلاق الإسلامية يزداد عمقاً، وبقيت الصعوبات الداخلية أيضاً، لا سيما جراء أعمال بعض المنافقين الذين كانوا يحاولون استغلال أي وضع لخلق مشكلات للنبي ﷺ.

حلم

كان شهر رمضان قد أهل وأخذ النبي ﷺ، كعادته، يكثف عبادات الليل، وكان أيضاً أكثر اهتماماً بالفقراء والمعوزين، كان هذا شهر ارتقاء

روحـي، كان يتلو فيه النبي ﷺ على جبريل جميع ما نزل به الوحي، وكان يطيـل فيه صلواته ويؤدي فيه صلاة التراويـح[1]. وكان هذا الشهر موسم الدعاء، حيـث كان على النساء والرجال الصيام في النهار، متحررين من الخصائـص التي تقترن اقتراناً مباشراً ببشريتهم: الشراب والأكل وتلبية حاجتهـم الجنسية، فمن خلال سيطرة المؤمنـين على حاجاتهم الطبيعية كانوا يسعون إلى الاقتراب من الصفات الرحمانية والشعور بوجود الله من خلال التفكر، كان على المسلمين أن يتجاوزوا صيام الجسد وأن «يصوموا» بألسنتهـم (تجنب الكذب والفحش والتعليقات غـير المحتشمة) وبقلوبهم (تجنب المشاعر أو الأفكار السلبية). هذا النظام الروحي، كما قلنا، اقترن بمتطلبات إضافية مثل العناية والرعاية اللتين يجب أن يلقاهما الفقراء في شهر رمضان، فرمضان هو شهر القرآن وشهر السخاء والعطاء والتعاضد. وكان النبي ﷺ يهيب بالمؤمنين، من نساء ورجال وأطفال بأن يتصدقوا في نهاية شهر الصيام من أجل تلبية حاجات جميع أفراد الجماعة خلال أيام الاحتفـالات التي كانوا يقومون بها، فالسعي إلى التقرب من الواحد الأحد لا يمكـن أن يتحقق ويكتمـل إلا من خلال التقرب مـن الفقراء، من خلال رعايتهم وخدمتهم يتقرب المرء من الله.

وقد رأى النبي ﷺ، في ذلك الشهر، رؤيا عجيبة محيرة ومدعاة للسرور، فقد رأى في المنام أنه دخل حرم الكعبة وقد حلق شعر رأسه وأمسك بمفتاح الحرم بيده اليمنى، كانت تلك الرؤيا شديدة الوضوح وفسرها النبي ﷺ، كما كان يفعل في مثل هذه الظروف، بأنها علامة ورسالة، وفي اليوم التالي حدّث الصحابة عن الرؤيا ودعاهم إلى الاستعداد للذهاب وأداء العمرة في مكـة[2]. لقد شعروا بالسرور بالدهشة على حد سواء، كيف يمكنهم دخول

أرض مكة؟، وكيف ستسمح لهم قريش بذلك؟ وكيف يتسنى لهم تجنب الصراع؟ وقد طمأنتهم ثقة النبي ﷺ الواضحة: كان من المقرر أن تبدأ الرحلة في شهر ذي القعدة، وهو أحد الأشهر الحُرُم التي لم يكن العرب يتقاتلون فيها أبداً حتى ذلك الوقت، وعلاوة على ذلك، فقد ثبت أن رؤيا النبي ﷺ صادقة، لقد قادهم حتى ذلك الوقت بهدوء وثقة، فاستعدوا للرحيل.

اشترك في الرحلة بين ألف ومئتين وألف وأربع مئة من المؤمنين. كان الخطر عظيماً، لكن النبي ﷺ لم يسمح للمعتمرين بحمل الأسلحة (عدا المعدات اللازمة للصيد وغير ذلك من حاجات الرحلة)، وأخذ معه زوجته أم سلمة ــ رضي الله عنها ـ كما أخذ نسيبة وأم هانئ ـ رضي الله عنهما ــ وهما امرأتان شهدتا بيعة العقبة الأولى، فانطلقوا وفي أول مكان للتوقف قلد النبي ﷺ الجمال التي سيُضحى بها خلال العمرة. أما أهل مكة فقد سمعوا بعد فترة وجيزة أن قافلة من المسلمين متوجهة إلى مكة بقصد زيارة الكعبة، كانت زيارة الحرم المكي لعشرات السنين أهم حق مشروع لقبائل الجزيرة، أما بالنسبة للمسلمين فقد كانت قريش تواجه مأزقاً عويصاً يستعصي على الحل، لم يكونوا يرون كيف يمكنهم إما تبرير منعهم من الدخول (وكيف يمكنهم إجبارهم على الانصياع في شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم، التي كانت الحرب محظورة فيها) أو، من جهة أخرى، كيف يسمحون لعدوهم بدخول المدينة، الأمر الذي سيضفي على المسلمين هيبةً غير مقبولة لقريش، فقررت قريش إرسال خالد بن الوليد ومعه مئتا رجل لمنع المعتمرين من الاقتراب من مكة. وجاء مخبرو المسلمين لإعلامهم بذلك، وقرروا تغيير طريقهم ليتجنبوا وضعاً

مـن شأنه أن يفضـي حتماً إلى صدام، وقد اعتمـد النبي ﷺ على معرفة أحـد الصحابة بالمنطقة، فسلكوا طريقاً وصلـوا من خلاله إلى مكة، على عتبة الأرض الحرام، في سهل الحديبية، في تلك النقطة توقفت ناقة النبي ﷺ «القصواء» ورفضت السير، وكما كانت عليه الحال عندما وصل النبي ﷺ إلى المدينـة قبـل سبع سنوات، فقد رأى في ذلك إشارة، فعليه التوقف والتفاوض مع فريق قريش بشأن الدخول إلى مكة.

فوجئـت قريش مـرة ثانيـة كلياً من موقـف النبي ﷺ الـذي لم يكن ينسجـم مع أي مـن تقاليدهم الدينيـة أو الثقافية أو الحربيـة، ففي أوج قوتـه، جـاء إلى مكـة غير مسلـح، وبالتالي، فإنـه في واقـع الأمر عرضة للخطـر، مع أنـه كان من الممكن للظـروف أن تمكنه مـن تحقيق سيطرة أكبر على أعدائه، وعلاوة على ذلك، فقد دعا الناس إلى دين جديد لكنه لم يتردد في الاعتماد على احترام قواعد التقاليد العربية في حماية نفسه من هجماتهم، وبذلك وضع قريشاً في مأزق، لأنه كان عليهم الاختيار بين احـترام القواعد وفقد هيبتهم (إذا سمحوا للمسلمين بدخول مكة)، وقد برهن تكتيك محمد ﷺ على أنه ناجح.

المفاوضات

كانت قريش مصممة على عدم السماح للمسلمين بأداء العمرة، بسبب مـا ينطوي عليه ذلك من تداعيات ولكن أيضـاً -بالطبع- لأنهم لم يكونوا يعرفون نوايـا محمد ﷺ الفعلية، فقرروا إرسـال مبعوث من عشيرة بني خزاعة، واسمه بُديل بن ورقة، الذي لم يكن على خلاف مع أي من العشائر الموجودة، ولـذا فإن بإمكانه القيام بمهمة الوسيط، فذهب إلى النبي ﷺ

الذي أكد له بأنه لا ينوي شن الحرب، بل كان يريد أداء العمرة مع أصحابه ثم يعود إلى دياره، على أنه أضاف بأنه مستعد لقتال أي شخص يعارض حقهم في دخول الحرم بحرية، مثل جميع العشائر والقبائل الأخرى، ومع ذلك، فإذا أرادت قريش المزيد من الوقت للاستعداد للسماح للمعتمرين بالدخول، فإن المسلمين سينتظرون عند الحديبية إلى أن تتم قريش استعداداتها، عاد بديل إلى مكة واقترح على قريش أن تسمح للمسلمين بالدخول، لكن اقتراحه استقبل ببرود شديد، وقد رفض بشكل خاص من جانب عكرمة، ابن أبي جهل.

وقرر أحد الزعماء واسمه عروة مقابلة محمد ﷺ والتفاوض معه والقيام في الوقت نفسه بإلقاء نظرة على من معه عن كثب ومعرفة طبيعة الحملة، فذهب إلى النبي ﷺ وبدأ يتحدث معه حسب العادات السائدة بين العشائر العربية: فخاطبه متخطياً الرسميات، على قدم المساواة، وأخذ يمسك بلحيته، كما درج على ذلك زعماء القبائل. فقابله بخشونة على تصرفه المغيرة، وهو أحد المهاجرين من مكة والذي هدد بضربه إذا استمر في ذلك السلوك، وقد دهش عروة لكنه قبل مغادرته وقف لمراقبة وزيارة معسكر المؤمنين ودهش لما شاهده من احترام وتفان المؤمنين لقائدهم، محمد ﷺ. فعاد إلى قريش وقال لهم، مثل ما قال بديل قبله، بأنه من الحكمة السماح لمحمد ﷺ بالدخول، لأنه ليس لديه أي نية لمقاتلتهم. غير أن زعماء قريش رفضوا مرة أخرى.

بينما كان عروة يقوم بمهمته، جرت محاولتان للتفاوض، فقد كان هُليس، من بني الحارث، قد جاء ليكلم النبي ﷺ. وقد عرفه النبي ﷺ من على بعد، بما أنه كان قدر احترام هليس وعشيرته للمسائل الدينية

والمقدسة، فقد أمر بأن ترسل إليه الجمال التي تم تقليدها وإشعارها للتضحية لمواجهته، وعندما رأى هليس الجمال، فهم المسألة وقرر العودة على الفور، بعد أن تأكد من أن محمداً ﷺ لم يكن ينوي في واقع الأمر سوى أداء العمرة بسلام، ولم يظل النبي ﷺ نفسه ساكناً: فقد كان قد أرسل إلى قريش مبعوثاً اسمه خراش، لكن عكرمة رفض أن يصغي إليه وقطع ساقي ناقته وكان على وشك ضربه عندما تدخل هليس لحمايته وطلب السماح له بالعودة إلى النبي ﷺ دون أن يصاب بأذى.

وهكذا فقد فشلت أربع محاولات للمفاوضات وبدا أن قريشاً تزداد تعنتاً، فقرر النبي ﷺ القيام بمحاولة أخيرة، فأرسل مبعوثاً يتمتع بقدر كبير من الاحترام والحماية في مكة ومن شأن مصيره أن يكون مختلفاً عن مصير خراش وتكون كلمته مسموعة، فاختار عثمان بن عفان رضي الله عنه، زوج ابنته، الذي له صلات وعلاقات متينة في مكة ولا يجرؤ أحد على التعدي عليه، فذهب عثمان رضي الله عنه ولقي استقبالاً حسناً، لكنه قوبل بذات الرفض: لن تسمح قريش للنبي ﷺ بأداء العمرة، أما هو فبإمكانه إذا شاء، الطواف حول الكعبة، لكن السماح لمحمد ﷺ ورجاله بالدخول لم يكن موضع بحث، فرفض عثمان رضي الله عنه عرضهم، وقد استغرقت مهمته وقتاً أطول مما كان متوقعاً، ولم تصل أخبار عنه إلى النبي ﷺ طيلة ثلاثة أيام، وسرت إشاعة بأن عثمان رضي الله عنه قد قتل، الأمر الذي جعل النبي ﷺ يحزن حزناً شديداً، إن مثل هذا العمل من جانب قريش ـ قتل مبعوث في شهر حرام ومقاومة حق المسلمين المشروع في زيارة الكعبة، وهو ما كان مسموحاً به لجميع القبائل ـ لم يعتبره المسلمون سوى إعلان جديد عن الحرب، فبعد ذلك الوقت كان عليهم أن يستعدوا للأسوأ.

بيعة الرضوان

جمع النبي ﷺ الصحابة وجلس تحت شجرة وطلب من كل المسلمين أن يبايعوه على الطاعة والإخلاص، بهذا العمل أعربوا صراحة على أنهم إلى جانب النبي ﷺ مهما كلف الأمر، كانوا قد جاؤوا لأداء العمرة، غير مسلحين، وأصبحوا يواجهون احتمالاً كبيراً بحصول قتال لم يكونوا مستعدين له، وكانت بيعتهم للنبي ﷺ تعني لهم أنهم بايعوه على عدم الفرار والمضي حتى الموت؛ لأن ميزان القوى كان ضدهم، وقد وضع النبي ﷺ نفسه يده اليسرى في يده اليمنى وقال للمؤمنين المجتمعين معه بأن ذلك يمثل مبايعة عثمان رضي الله عنه؛ لأن ذلك الأخير لم يبد أي علامة على أنه على قيد الحياة واعتبر ميتاً[3].

على أنه ما إن انتهى الصحابة من المبايعة حتى ظهر عثمان رضي الله عنه فجأة. وقد ابتهج النبي ﷺ بعودته، فلم يكن عثمان رضي الله عنه، زوج ابنته، على قيد الحياة فحسب، لكن قريشاً لم تكن على درجة من التهور بحيث لا تحترم تقليد عدم اللجوء إلى العنف في الأشهر الحرم، وهكذا فقد بدا أن الصراع مع قريش أصبح أقل احتمالاً وقيل للنبي ﷺ إن قريشاً أرسلت مبعوثاً جديداً هو سهيل بن عمرو، لإبرام اتفاقية رسمية مع المسلمين، فقرر النبي ﷺ أن يستقبله وينظر في مقترحاته.

وكان عثمان رضي الله عنه أيضاً قد بايع النبي ﷺ. وقد فهم، كغيره، أن هذا التعبير عن الإخلاص شيء لازم في وضع ينطوي على احتمال اندلاع الحرب، على أن الظروف كانت الآن مختلفة كل الاختلاف، حيث كان محمد ﷺ يوشك أن يبدأ مفاوضات بشأن شروط السلام بين جماعته

وقريش، لقد بايعوه جميعاً وهم يتصورون أنهم يعبرون عن إخلاصهم في وضع قتالي، وهو وضع كانوا فيه أيضاً في موقف ضعيف، والآن سوف يمتحن إخلاصهم من خلال تنفيذ شروط هدنة كان موقفهم فيها موقفاً قوياً، وقد جاء وصف تلك البيعة في الوحي الذي نزل في هذا الصدد: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[4]. كان المسلمون يطالبون بحقهم، وكانوا يحملون رسالة كانوا متأكدين من صحتها، وكانوا قد اكتسبوا هيبة عظيمة بعد المعارك التي خاضوها في الحقبة قريبة العهد، لذا فإن تساهلهم كان غير وارد.

صلح الحديبية

استقبل النبي ﷺ مبعوث قريش، سهيل بن عمرو، الذي اصطحب معه رجلين آخرين، مكراز وحويطب، بدأت المفاوضات بعيداً بعض الشيء عن الصحابة، وتمت مناقشة كل بند من الاتفاقية، مناقشة كانت تقترن بالحدة في بعض الأحيان، وقد طلب النبي ﷺ من ابن عمه، علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كتابة ما تم الاتفاق عليه أخيراً، فبدأ علي رضي الله عنه بالطبع يكتب النص مبتدئاً بالعبارة المعتادة «بسم الله الرحمن الرحيم»، لكن سهيل اعترض على تلك العبارة، قائلاً إنه لا يعرف الرحمن، وإنه يجب كتابة عبارة «باسمك اللهم»، وهي العبارة الوحيدة التي يعرفها العرب جميعاً (حتى المشركين كانوا يستخدمونها في مخاطبة إلههم الرئيس). واعترض بعض الصحابة على تغيير الصيغة، لكن النبي ﷺ تدخل وقال لعلي بأن يكتب «باسمك اللهم»[5]. ثم طلب منه أن يكتب: «هذا ما صالح عليه محمد، رسول الله وسهيل بن عمرو». فاعترض سهيل ثانية: «لو كنا

نعرف أنك رسول الله لما قاتلناك، اكتب: «محمد بن عبد الله»»، لكن علياً ﷺالذي كان قد كتب الصيغة المألوفة رفض الرضوخ وقال إنه لا يستطيع كتابة ذلك. فطلب منه النبي ﷺ أن يدله على المكان الذي كتبت فيه العبارة ومحاها بنفسه، ثم طلب منه أن يكتب ما طلبه سهيل بن عمرو، أي «محمد بن عبد الله». فصُدِم علي ﷺ وبقية الصحابة ولم يستطيعوا فهم موقف النبي ﷺ. وقد شعروا بمزيد من الانزعاج أيضاً إزاء شروط الاتفاقية، حيث إنها بدت لهم سلسلة من التنازلات غير الملائمة للمسلمين على الإطلاق، كانت المعاهدة تستند إلى أربع نقاط رئيسة: (1) عدم أداء المسلمين للعمرة في تلك السنة على أن يسمح لهم بالبقاء ثلاثة أيام في السنة المقبلة. (2) وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض. (3) تسري شروط الاتفاقية على الفور على أي عشيرة أو قبيلة تدخل في عهد أي من الطرفين. (4) من أتى محمداً ﷺ من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد ﷺ لم يردوه عليه[6].

وبدأ الصحابة يدركون أنه بعد توقيع اتفاقية بدت لهم أنها تنطوي على الاحتيال فإن عليهم أن يعودوا دون أن يزوروا الكعبة. وقد بلغت خيبة أملهم الذروة عندما شاهدوا وصول أبي جندل، وهو الابن الأصغر لسهيل الذي وقع اتفاقية للتو، كان أبو جندل قد اعتنق الإسلام وهرب ورجلاه لا تزالان مقيدتين بالأغلال، بعد أن كان أبوه قد سجنه منعاً له من الانضمام إلى المسلمين، فعندما رأى سهيل ابنه الهارب ذكّر النبي ﷺ أن الاتفاقية التي وقعها للتو تنص على أنه لا يجوز له استبقاؤه وأن عليه أن يرده، واعترف

النبي ﷺ بذلك، وتم تسليم أبي جندل، الذي ناشد الصحابة بأن يساعدوه، إلى أبيه وأوصاه النبي ﷺ بالصبر، وقد ثار على هذا الوضع أخوه عبدالله، الذي كان قد أسلم من وقت طويل وكان من بين المعتمرين الذين رأوا المشهد، ولم يستطع صحابي آخر، عمر رضي الله عنه، ضبط مشاعره عندما لطم سهيل وجه ابنه بسلاسله، فاندفع إلى النبي ﷺ واحتج بشدة موجهاً إليه سلسلة من الأسئلة كانت تعبر عن خيبة أمله الشديدة، «ألست رسول الله؟ ألسنا على حق؟ أليس أعداؤنا على الباطل؟ فلم نُعطى الدنية في ديننا؟»، وكان النبي ﷺ يجيب إجابات رصينة، لكن ذلك لم يكن كافياً لتهدئة عمر رضي الله عنه الذي ذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه وهو يستشيط غضباً طلباً لمساعدته، فأوصاه أبو بكر رضي الله عنه بأن يلزم الهدوء، حيث إنه كان يرى أن النبي ﷺ على صواب، فتمالك عمر رضي الله عنه نفسه وهدأ، مع أنه كان من الواضح أنه ظل مقتنعاً بأن الاتفاقية كانت تنطوي على الإذلال.

غادر سهيل والمبعوثان الآخران المعسكر وأخذوا معهم أبا جندل الذي انهار والدموع تملأ عينيه، وشعر المسلمون الذين رأوا المشهد ببالغ الحزن وعميق الاشمئزاز، لم يستطيعوا فهم موقف النبي ﷺ. الذي علمهم الشجاعة والكرامة وها هو الآن يقبل صفقة غير عادلة، الأمر الذي جعلهم يظهرون بمظهر البائس فيما كان أحدهم يلقى معاملة مهينة ومذلة، وعندما طلب منهم النبي ﷺ أن يضحّوا بإبلهم التي قلّدت وهيئت لتكون أضحيات العمرة، لم يتمالك أحد من الصحابة الاستجابة للنبي ﷺ بسبب ما شعروا من عميق الجراح والمرارة. وكرر النبي ﷺ أمره ثلاث مرات لكن أحداً لم يستجب له، كانت تلك هي المرة الأولى التي واجه فيها عصيان أمره بهذه الطريقة الجماعية والتي تنطوي على الإصرار.

شعر النبي ﷺ بالدهشة والحزن وعاد إلى خيمته وأخبر زوجته أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ بما حدث ورفض الصحابة التضحية بالبُدن، أصغت أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ إليه واقترحت عليه أن يتصرف بحكمة وبصمت: نصحته بالخروج وأن يقوم، دون أن يتفوّه ببنت شفة، بتضحية أضحيته، وأن يكتفي بأن يكون المثل لهم، استمع النبي ﷺ لنصيحتها التي تبين أنها كانت حصيفة، فذهب إلى أضحيته وتلا الصيغة الشعائرية وضحى بها. وعندما رأى الصحابة ذلك نهضوا الواحد تلو الآخر وقاموا بمثل ما فعل. ثم حلق النبي ﷺ رأسه وفعل مثل ذلك بعض الصحابة، بينما قام البعض بقص شعرهم أو مجرد خصلة منه.

المفاهيم الروحية وفهم معنى النصر

سرعان ما أدرك الصحابة أن أحكامهم الأولى بشأن المعاهدة كانت مخطئة كلياً وأنهم لم يقدروا النبي ﷺ حق قَدْره من حيث عمق روحانيته وثباته العقلي الصارم، وذكاؤه البشري وعبقريته الإستراتيجية. كان يستجيب إلى الإشارات، فعندما توقفت ناقته ورفضت التحرك أدرك بحدسه أن المسلمين لن يتقدموا إلى أبعد من سهل الحديبية في تلك السنة، وقد أقنعه فشل المفاوضات الأربع الأولى وعناد قريش بوجوب تذرعه بالصبر، كان شديد الثقة بالحلم الذي رآه حيث رأى أنه يدخل المسجد الحرام وأن هذا لا بد أن يتحقق، وإن كان لا يستطيع في ذلك الوقت معرفة متى سيكون ذلك، فبيعة الرضوان التي بدت في أول الأمر أنها توحد المسلمين ضد العدو قد تحولت، كما رأينا، إلى المعاهدة على الإخلاص الذي كان يقتضي بأن يتحملوا بكرامة شروط اتفاقية سلام.

وعلاوة على ذلك، فعندما رفض سهيل صيغتي المسلمين المألوفتين اللتين تشيران إلى الله وإلى مركز محمد ﷺ بصفته رسول الله، فقد سمع النبي ﷺ وجهة نظره وتمكن، في تلك اللحظة المعينة من تحويل منظوره ورؤية الأشياء من وجهة نظر محاوره، فما قاله سهيل كان صحيحاً تماماً من وجهة نظره، كان من البدهي في الواقع أنه لو اعترفت قريش بمركزه بصفته رسول الله، لما قاتلته، لذا، فإن اتفاقية تستند إلى المساواة لا يمكن أن تنص على عنصر يمثل في الواقع الأمر اعترافاً بما كان أحد الطرفين يعتبره صحيحاً ويناقض في الوقت نفسه موقف الطرف الآخر، أما الصحابة الذين كان توقيرهم للنبي ﷺ بالغ الشدة فلم يتمكنوا على الفور من سماع حقيقة الطرف الآخر، لكن موقف النبي ﷺ وطريقته المعقولة في نظرته إلى الاتفاقية كانت تنطوي على درس روحي وفكري. فالمسألة هي أن موقف القلب من الحقيقة ـ الروحانية العميقة ـ يجب ألا يسمح له أبداً بأن يتحول إلى مسألة عاطفية تنطوي على عمى عاطفي، يجب الرجوع دائماً إلى العقل لتحليل المواقف وتلطيف ردود الفعل والمساعدة على إقامة علاقة يقظة ومتماسكة بشأن موقف الطرف الآخر، إن ما بدا على أنه تنازل غير مقبول من وجهة نظر إيمان المؤمنين كان عادلاً ومنصفاً من وجهة النظر المزدوجة لعقلانيات كل من الطرفين اللذين أبرما المعاهدة.

لم يسع محمد ﷺ إذلال قريش بغية إنقاذ شرف المسلمين وهيبتهم، أو حتى استغلال الوضع السياسي الجديد الذي انبثق عن النصر الذي أسفرت عنه معركة الخندق، فالموافقة على عدم دخول المسجد الحرام في تلك السنة أخذت بعين الاعتبار هشاشة قريش وحافظت لها على

هيبتهـا، وهـذا أدى إلى سـلام طويـل الأمد، وقـد كان من المقـدر لذلك السـلام الذي أخـذ بالاعتبار المصالح العامة للمعسكريـن، أن يتحول إلى مصلحـة المسلمـين، فالفقـرات التي نصـت على رد الذيـن يهاجرون إلى المدينـة وتوفير الملاذ للمسلين الذين يغادرون المدينة ويذهبون إلى مكة لم تؤثـر إلا هامشياً على الجماعـة الإسلامية، وإيمان الإنسان الذي يأتي من مكـة ويرده المسلمون إلى عشيرته يجب ألا يتأثـر ـ رغم المعاناة ـ من هذا النفي المفروض بالقوة، وخلافاً لظاهر الأمور، التي بدا أن حالة أبي جندل تؤيدها، فإن محمداً ﷺ لم يقدم أي تنازل يذكر بشأن هذه النقطة.

لقـد مكـن توكل النبي ﷺ علـى الله، الذي اقترن بثبـات فكري صارم وذهن مرهف حاد بشكل استثنائي، من إرساء قواعد هدنة عشرة أشهر مع وعـد بزيارة المسجد الحرام في العام المقبل، لكن معظم الصحابة، لاسيما عمـر بن الخطاب رضي الله عنه، لم ينظـروا إلا إلى النتائج الآنيـة وشعروا بأن هذا ينطـوي على إذلال لا يمكـن أن يعتبر إلا هزيمة للمسلمـين، وكما كان حال الكثيريـن غيره، فقد ندم علـى رد فعله العنيف علـى النبي ﷺ، لكنه ظل علـى قناعة بأن الاتفاقيـة كانت استسلاماً لقريش. وفي طريق العودة. تم إبلاغـه بـأن النبي ﷺ استدعـاه، كان يخشى من أن يكـون النبي ﷺ قد أرسـل في طلبه ليوبخه على موقفـه غير اللائق، أو، الأسوأ من ذلك، ليقول لـه بنزول آيات مختلفـة كل الاختلاف عما كان من المحتمل أن يتوقعه، وقد جاء في الآيات: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[8]. ثم ذكر بيعة الرضوان:

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[9]. كل هـذا قد جاء في ضوء رؤيا محمد ﷺ التي كانت صادقة: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[10].

لقد تم عرض أحداث الماضي قريب العهد بطريقة مختلفة كل الاختلاف مع منظور الصحابة لها: فبيعة الرضوان للاستعداد للقتال كانت في الحقيقة تعهداً بالإخلاص للسلام وتم تصوير الهزيمة الظاهرة على أنها ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾، وأن الحلم الذي بدا أنه أجهض على أنه مؤكد في المستقبل ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ لم تفهم الغالبية العظمى من المسلمين أو لم يروا أو لم يستطيعوا إدراك الدلائل والآمال التي أتاحتها الاتفاقية؛ لذا، فإن توقيع الاتفاق كان، مرة أخرى، لحظة متميزة لتعلم دروس روحية وربما مع درس استثنائي بشأن قيمة الذكاء وصفاء الرؤية، كان الإصغاء والقدرة على تغير وجهة النظر واحترام كرامة الآخر وبعد النظر بعضاً من الصفات التي أظهرها النبي ﷺ والتي أسهمت في رسم دوره كقدوة للمسلمين.

كما كان قدوة أيضاً من منطلق آخر في حياته: عندما رفض الصحابة التضحية بالجِمال، عاد إلى زوجته أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ التي أصغت إليه وواسته، فأظهرت له ثقتها واقترحت عليه الحل لمشكلته. فذلك الحوار وذلك التفهم والإصغاء يعبران عن صميم جوهر موقف النبي ﷺ من زوجاته، وكما جرى قبل عدة سنوات مع خديجة ــ رضي الله عنها ـ فإنه لم يتردد أبداً في الإسرار إلى زوجاته، واستشارتهن والتحدث إليهن واعتماد آرائهن، ففي الوقت الذي كان فيه مستقبل الجماعة بأسرها

يتحـدد من خلال الـرؤى والتعهدات بالولاء واتفاقيـات السلام، فقد عاد إلى جانـب زوجته مرة كإنسان بسيط، أخبرهـا بحاجته إلى الحب والثقة والنصح ـ وهذا قدوة لجميع البشر.

احترام العهود

كان المسلمون قد رجعوا إلى المدينة وعادت الحياة اليومية إلى مجراها في جو أقل توتراً بكثير مما كان عليه الوضع سابقاً، فقد أتاحت لهم الهدنة خفض حذرهم من الخارج وإعطاء المزيد مـن الاهتمام لشؤون الجماعة اليوميـة، وأخـذ عـدد الداخلـين في الإسلام يـزداد وكان يتعـين مواصلة التخطيـط والتنظيم لدمجهم وتعليمهم الإسلام، وقد انضمت شخصيات ذات شأن في الجزيرة إلى المئات من الناس العاديين الذين دخلوا الإسلام في المدينة أو الذين أتوا ليستقروا في المدينة، فعلى سبيل المثال، هاجر أخو عائشة ـ رضي الله عنها ـ عبد الكعبة، بعد وفاة أمه، أم رمان، التي أثرت وفاتهـا على أبي بكر ﷺ تأثيراً عميقـاً، وغيّر النبي ﷺ اسم عبد الكعبة إلى عبد الرحمن: كان قد درج على تغيير الاسم عندما يكون للاسم الأصلي معنـى غـير سائغ أو يشير إلى موقف يعتبره الإسـلام مُحرّماً، وهكذا فقد كان معنى عبد الكعبة يتعارض مع مبدأ الإسلام المتعلق بعبادة الله وحده. وفي حـالات أخـرى، كان باستطاعة المسلمين الإبقاء علـى الاسم الأصلي، وهـو ما كانـت تختاره الغالبيـة العظمى منهم، فلم يكـن المسلمون الأوائل يتصـورون أبداً شيئاً مثـل «الأسماء الإسلامية» التي هـي من أصل عربي حصـراً، بل إن ما كان يشغلهم هو العكس: كان عليهم تجنب بضعة أسماء تنطـوي على معان مخالفة بوضوح للتعاليـم الإسلامية، والسماح باختيار

غـير مقيد لمختلف أنواع الأسماء الأخرى، من جميع اللغات والأصول، كان لديهـم أسماء بالغة التنوع من أصـل عربي أو فارسي أو بيزنطي، ولم يكن ذلك يشكل أي مشكلة على الإطلاق بالنسبة للنبي ﷺ ولصحابته.

خلال هذه الأشهر التي جرت فيها الإدارة والتنظيم الداخليين، واجه المسلمـون حالة أخرى من تسليم الفارين، فقد جاء أبو بصير إلى المدينة مـن مكة وطلب من محمد ﷺ اللجوء، لكن النبي ﷺ الذي كان ملتزماً التزامـاً دقيقاً بشـروط الاتفاق الذي وقعه، فلم يكـن في وسعه أن يسمح له بالبقاء، وعندما جـاء مبعوث من قريش، يصحبه أحد الرقيق واسمه كوثـر ليطلب رد أبي بصـير لم يسع النبي ﷺ سـوى الاستجابة للطلب. فغـادروا ومعهم أبـو بصير كأسـير، بينما أوصى محمـد ﷺ وأصحابه أبـا بصير بالصـبر، وفي وقت مبكر مـن رحلة العودة استغـل أبو بصير غفلة من حراسه وقتل مبعوث قريش، ففر الرقيق فزعاً وعاد إلى المدينة وسرعان ما انضم إليه سجينه السابق، أراد محمد ﷺ أن يعيدهما ثانية إلى مكـة، لكن الخـوف بلغ من كوثر درجة كبيرة حتـى أن النبي ﷺ لم يكـن لديه حل يتيح له الوفـاء بعهده غير أن يطلب من أبي بصير مغادرة المدينـة (إذ إن الاتفـاق كان ينصـ على عدم السماح لـه بالبقاء). على أنـه لم يكـن يجب عليه التأكد مـن عودته إلى مكـة، إذ إنه لم يكن يوجد حارس يأخذه إليهـا، فأمره النبي ﷺ بالمغادرة طبقاً لنصوص المعاهدة وأبـدى ملاحظـة فيها تورية لأصحابه: «لو كان معـه رجال!»[11] ولم يعد أبـو بصير إلى مكـة، بالطبع: واستقر به المقام في إحـدى الطرق المؤدية إلى الشمـال التـي كان تطرقها القوافل، لاسيمـا قوافل قريش. وسرعان

مـا انضم إليه مسلحون آخرون من الذين هربوا من مكة وسمعوا قصته، وقرروا مهاجمة القوافل التي تسلك الطرق الشمالية[12]. وقد ازداد عدد جماعـة المسلمـين وازداد عدد الهجمات وفعاليتها حتـى أن قريشاً ذاتها طلبـت من النبي ﷺ أن يقبل أبا بصير ورجاله وجميع المهاجرين الآتين مـن مكة، وهكذا فقـد نجحت خطتهم واستقبلهـم النبي ﷺ، بناء على رغبـة قريش في تعليـق مفعول تلك الفقرة من المعاهـدة، وتجدر الإشارة إلى أن النبـي ﷺ رفض أن يرد النساء (على سبيل المثال، أم كلثوم بنت عقبة) تحت أي ظرف من الظروف، لأن المعاهدة لم تذكر سوى الرجال: ولم تعترض قريش على ذلك.

إلى جميع الحكام

تضاعـف عدد المسلمين خلال السنوات التـي أعقبت المعاهدة، فخلال أشهر الهدنة قرر النبي ﷺ إرسال رسائل إلى جميع حكام الإمبراطوريات والممالك والأمم المجاورة.

وهكـذا فقد استلم نجاشـي الحبشة رسالة جديـدة من النبي ﷺ قبـل اعتناقه الإسلام ووافق على أن ينوب عن النبي ﷺ في عقد قرانه على أم حبيبة، التي، كما ورد آنفاً، تخلى عنها زوجها في الحبشة، وكتب محمد ﷺ أيضاً إلى كسرى، ملك فارس، وإلى هرقل، إمبراطور الروم، وإلى المقوقس، حاكـم مصر (الذي أرسل إلى النبي ﷺ جارية قبطية، ماريا، كهديـة)؛[13] وإلى منذر بن سوى، ملك البحرين؛ وإلى الحارث ابـن أبـي شَمّر الغساني، الـذي كان يحكم جزءاً مـن الجزيرة العربية حتـى سواحـل بلاد الشـام، كان محتـوى الرسائل واحـداً تقريباً: فقد

عـرف النبي ﷺ عن نفسه بأنه «رسول الله» للذين أرسل لهم الرسائل وذكرهم بوحدانيـة الله ودعاهم إلى الإسلام، وفي حال رفضهم فإنهم سيتحملون المسؤولية أمام الله لإبقاء شعبهم في ضلال.

اختلفـت ردود الملوك والحكام علـى تلك الرسائـل المختلفة: فبعضهم (مثل النجاشي ومنذر بن سوى) قبلوا الرسالة، وبعضهم الآخر (المقوقس وهرقـل) أظهـرا الاحـترام دون الرغبـة في القتـال أو اعتنـاق الإسلام، وآخـرون (الحارث ابـن أبي شمـر الغساني، علـى سبيل المثـال) رفضوا الرسالـة وهـددوا بمهاجمة المسلمـين، على أن الرسالـة أصبحت معروفة للجميع وأصبحت الجماعة الإسلامية مستقرة الآن في المدينة، معترفاً بها بهويتهـا الدينية، وتحظى بالاحترام بوصفها قوة إقليمية، واعتبر زعيمها، محمد بن عبد الله، إما نبياً كان من المقدر أن يتسع حكمه بمشيئة الله، أو كملك قوي يُخشى جانبه ويتعين احترامه والخوف منه.

لقـد كانت هدنة الحديبيـة نصراً حقيقياً وفتحاً للعـالم: كان القتال قد استنفـذ كل طاقة الجماعة التي كانت تسعى إلى حماية نفسها وتقاوم لتظل علـى قيد الحيـاة، أما الآن، فقد تغـيرت الأحوال، وفي ذلـك الجو السلمي، أصبـح بإمـكان النبي ﷺ أخـيراً أن يبلغ مضمـون رسالة الإسـلام: مبدأ التوحيـد الذي يحـرر البشر مـن الانشغال المحتمـل بالمصالـح والسلطات المؤقتـة، ليوجههم إلى احترام التعاليم الروحية والأخلاق والقيم التي يجب أن يخلصـوا لها، كانوا حبيسـي الحاجة إلى الدفاع عـن أنفسهم، مقيدين بضـرورة دفع الأخطار عـن أنفسهم، فدافعوا عن حياتهـم وسلامتهم لكن لم يكـن لديهم سبيـل التعبير عن مضمون ومعنى ما كانـوا يؤمنون به، كان

السلام، الذي أصبح سائداً في كامل الجزيرة، قد غير الوضع: أخذت تزداد أعداد العشائر التي أصبحت الآن قادرة على استيعاب رسالة الإسلام، فقد دخل فيه بعضهم وأظهر آخرون احتراماً له دون الدخول فيه؛ وقاومه آخرون ولكن مع وعي تام، وليس لمجرد علاقات السيطرة والثروة والسلطة.

خيبر

على أنه ظل حصن أخير يمثل تهديداً خطيراً لأمن الجماعة الإسلامية بعد توقيع معاهدة الحديبية، كان هذا الحصن يتمثل في مدينة خيبر التي استقبلت الكثيرين من المهاجرين على إثر انتصارات المسلمين السابقة. كانت خيبر قوة إقليمية يخشاها الجميع وبدا أن مهاجمتها غير موضوع بحث لأن حصونها وأسلحتها وثرواتها أرقى بكثير مما يمكن لأعدائها، بمن فيهم المدينة، أن يأملوا في قتالها والتغلب عليها، وكان زعماء خيبر الذين استرشدوا بنصائح أفراد بني قنيقاع وبني النضير وبني قريظة، يكنون العداء لوجود محمد ﷺ في المنطقة ولم يتركوا مناسبة لإظهار ذلك وإلحاق الأذى بمصالح جماعته أو لفرادى جماعته كلما سنحت لهم الفرصة.

قرر النبي ﷺ إعداد حملة ضد خيبر، لكنه كان مصمماً على السرية حتى اللحظة الأخيرة، كي لا ينتبه العدو، وفي حين أنه كان بإمكان خيبر الاعتماد فقط على أربعة عشر ألفاً من الرجال، إلا أن محمداً ﷺ قرر الذهاب إلى هناك بجيش مؤلف من ألف وأربع مئة فقط (مع أنه بإمكانه حشد عدد أكبر من ذلك). وعند اقترابه من المدينة ليلاً، دعا إليه دليلاً كان يعرف المنطقة معرفة جيدة وعسكر بين اثنين من الحصون: بهذه الطريقة استطاع قطع الاتصال بين أهل خيبر وحلفائها من غطفان،

وعنـد طلـوع الفجـر دهش سـكان الحصنـين وسـاد الخوف فـوراً بين صفوفهـم، واستمر الحصار عدة أيـام، كان محمد ﷺ ورجاله يجمعون خلالهـا المعلومـات التي تمكنهم من وضع أفضل خطـة لإجبار العدو على الاستسلام، وقـرروا مهاجمة القلاع الواحدة بعد الأخرى، ابتداءً بالأكثر انكشافـاً والأكثر هشاشةً، وقد نجحـت الطريقة نجاحاً كبيراً، ولم يمض وقت طويل حتى سقطت القلعة الأولى، وجرت مناقشة شروط الاستسلام لـكل حصن على حده، ولكن كان يطلـب من المهزومين في معظم الحالات ترك ممتلكاتهم والرحيل مع نسائهم وأطفالهم.

وقـاوم الحصن الرئيس الأخـير قرابة أربعة عشر يومـاً لكنه استسلم في آخـر الأمـر، إذ إن حصـار المسلمـين كان خانقـاً ولم يـترك أي أمـل بالانتصـار، ثـم استسلم الحصنـان الباقيان وجـرت المفاوضـات بشأن شـروط استسلامهمـا. ووافق النبـي ﷺ علـى السماح للسـكان بالبقاء والاهتمام بمزارعهـم وبساتينهم، على أن يدفعوا للمسلمين ضريبة دورية عـن منتجاتها، فبعد الانتصار على كافة الحصون، استطاع النبي ﷺ أن يحيدّ آخر عدو رئيس له في المنطقة.

كان من بين الأسرى صفية ابنة حُيـيّ (كان حُيـيّ هو المسؤول عن خيانة بنـي قريظة). لم تكن صفية مثل أبيها على الإطلاق وكانت تحاول فَهْم تعاليـم النبي ﷺ. كانت تقية ولم تكن تشعر بالعـداء نحوه مثل أهلها، وكان النبـي ﷺ قـد سمع عن هذه المـرأة وروحانيتها، ولم تتردد في أن تخبره عن رؤيتها التي قرنت مصيرها بمصير المدينة، وقد أصغى إليها

النبـي ﷺ ثم خيّرها، بين أن تبقى على يهوديتها وتعود إلى أهلها أو أن تدخـل في الإسلام وتتزوجه، فقالت: «أختار الله ورسوله!» وتم الاحتفال بالعرس بعد مدة وجيزة.

كانـت تلـك السنة السابعـة للهجـرة (628م) مرحلة جديـدة، فقد ساد السلام الآن في المنطقة ولم يعد المسلمون يخشون الهجمات من الشمال.

وقـد مكنـت الاتفاقيـات التي نظمـت علاقـات القبائـل والعشائر، أو التجـارة بصفة عامة، المسلمين من الاستقـرار بأقصى درجة من الأمان. وكان لتعـدد زواج النبي ﷺ علاقة بذلك الوضع: فقد كانت بعض زوجاته مـن عشائـر أصبحـت في واقـع الأمر، أقـارب للنبي ﷺ ولـذا فقد عدوا أنفسهـم حلفـاء طبيعيين لـه، ومن ثَمَّ بـدا أن الجماعـة الإسلامية ذاتها أصبحـت منيعة مرهوبـة الجانب، ففي خلال ثمان سنـوات، لم تستقر في مدينـة جديدة، المدينة فحسب، بل ضمنـت لنفسها مركزاً لا يوازيه مركز فضلاً عن الهيبة الإقليمية.